جماعة الأحياء

أولا- الشعراء المحافظون :

المصدر : الادب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره د سالم الحمداني و د فائق مصطفى

بقي الشاعر العربي على عهد الحكم التركي متخلفة ، شأنه شأن أي نشاط فكري أو أو اجتماعي وإذا كانت مصر قد تمكنت من أن تفلت من عقال الحكم المباشر للأتراك ، منذ عهد محمد علي ، فإن الأدب فلل يدور في دروبه الضيقة ، إذ انصت جهود هذا الوالي توراه على ما يحقق له أطماعه في السيطرة على مشر . ومن ثم يقي الشعر والفن على صورته السالفة في العصور العثمانية ينبع من التكلف ، ويسير في أخاديد الصنعة : ويعش في سراديب الضعف والتهالك . وظل الشعراء يسلكون تقي الدروب الملتوية الضيقة ، التي سلكها أسلافهم و معاصر وهم في البلاد العربية من أمثال الشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ العطار والشيخ شهاب الدين محمد بن إسماعيل والسيد علي الدرويش .

ينشدون شعرة فقد روعة العربي الخالص – وعدا جما يخلو من الحياة ، فقد أحالته الصنعة والتكلف فلا بديعته اضطراية والتواء ، أشيه بالأحاجي والألغاز ، وأصبح المثال الأعلى للشاعر قدرته على تكيل شعره بأكبر عدد من أغلال السنعة التي تكتم أنفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومعناه).

وهذه الصورة التي سلكها الشاعر في مصر كانت على ضعفها و تخلفها أفضل من الصورة التي تركها شعراء الاقطار العربية الأخرى فقد وجدنا مجموعة من الشعر تنهض بالشعر ولكن في بطء شديد على نحو ما يصور ذلك علي ابو النصر وعبد الله فكري وعلي الليثي وعبدالله النديم ومحمود صفوات الساعاتي ومحمد البحاري وعبد الهادي وغيرهم .

وعلى الرغم من ان هؤلاء هم من جيل البارودي إلا أنهم لم يفهموا الشعر ألا على انه لم يزد على انه نديم في المحافل يلقى سامعيه ويعاشرهم

ويضحكهم بالملح والأحاديث – ذلك لأن ذوق العصر الذي عاش في الظلمة الفكرية والسياسية قيم الشاعرية على انها اللياقة.

محمود سامي البارودي :

الحياة والسيرة في سنة ١٨٣٨ والد محمود سامي البارودي من أسرة شركة.

سبق لها أن حكمت مصر القرن ونصف قرن، ولهذا النسب أثره في تطلع البارودي نحو المجد ، المجد السياسي والمجد الأدبي ، لأنه ومنذ أن شب، شب معه شعور بالسعي نحو السؤدد والسيادة، كثيرا ما تردد على لسانه فخرآ بآبائه وأجداده.

وكانت أمه تثير في نفسه هذه المشاعر، لتجعل منه رجلا ينامل الحياة بهمة وقوة خصوصا بعد أن تعرض الليتم وهو في السابعة من العمر ، فكانت تحدثه عن عظمة أبيه وبطولة جل وشهرة خاله (ابراهيم) في ميدان نظم الشعر، مما حدا به إلى أن يفخر به.

وكان لنسيبه الشر كسي الذي يعتد به اثرهما في تأكيده على عنصر البطولة والشجاعة في شعره وربما شجعه للانضمام إلى الجيش ، بعد أن أنتهى من دراسته الأولية ليكون مع رفاقه من أبناء الشراكسة الذين سبقوه اليه. ولكن القدر كان يترصده ، فقد وقف الخديوي سعيد بحماقة ضد معاهد التعليم والجيش ، وحين أغلق معظمها ، حبل بين الفتى وبين طموحه في أن يكون ضابطا له مهابته في صفوف المقاتلين ، ولكن الشاب الطموح وجد أسبابا أخرى حقق له ما كان يسعى اليه ، فقد وجد ذلك في مكتبة خاله ابراهيم التي كانت تحتوي نفائس المخطوطات والمطبوعات من دواوين الشعر وكتب التاريخ ، كما وجد ذلك في مكتباتالأستانة ، حين وصلها بعد مغادرته مصر التي ضاقت بنفيه ويطموحاته .

وفي عاصمة الأتراك ، يكتب الشاعر حيرة في الحياة ، ومعرفة بشؤون الناس وسعة في الثقافة .

ويعود إلى مصر مع الخديوي إسماعيل الذي وثق به ، وعينه قائد لكتيبتين من فرسان حرمته عام ١٨٦٣.

ولقد حققت عودته إلى صفوف الجيش ما كان يتمناه من مجد وسؤدد ، وخصوصا حسين شارك في الحروب التي خاضها الأتراك ضد خصومهم الأوربيين ـ فكان فيها قائد منتصرة و جندية شجاعة لا يعرف الهزيمة .

ولقد جسد العديد من قصائده تلك الانتصارات ، بما يؤكد قوة شخصيته والاعتداد بشجاعته ، وربما عكست تلك القصائد أيضا ، قدرته الفنية في نظم الشعر ، كما عكست طموحاته السياسية . ولقد كان اعتداد البارودي بنفسه، وفخره بنسبه أشد ما يميزه من غيره.

كانت ضروب البسالة التي أمدها البارودي سببا في ترقيته إلى مرتبة (لم تقع مسؤولي الخديوي ، وقد هيأ له هذا الموقع أن يحبا في بحبوحة من ورغد العيش ، وأن يكون على أتصال مستمر بالخديوي وعلى مقربة من الحياة اللينة التي تتمثل بالقصور الثلاثين ألذي كان إسماعيل قد أبتناها له في القاهرة والاسكندرية والأقاليم، والتي ملأها بألوف الجواري الحسناوات والوصفيات الجميلات .

وأتى لها يفرق من المغنيات والراقصات والممثلات والعار قات) وفي أجواء هذه القصور، قضى شاعرنا ثماني سنوات ، و تهيأت له كل أسباب التعيم بما شاء في مجالس الطرب ، وتدغدغ صور الحياة اللامية أوتار حسه إلى أعماق مشاعره ، و تتحول في نفسه تجارب حقيقية بعيدة عن الزيف ، وتصير بعد ذلك قصائد تطفح بالحيوية وتجسد ما في شبابه من أقبال على الحياة واندفاع إلى الملذات.

مكث البارودي ثماني سنوات في قصر إسماعيل يراقب الحياة المصرية ويكتشف أبعادها السياسية والاجتماعية والخلقية ، ولم يقف في كل ذلك متفرجا بل راح يمعن فيها ليكون في نفسه صورة كاملة لدقائقها . وقد اكتشف أن الذين يحكمون مصر وقتئذ ، قيدون شعبها بالسلاسل ، ويتآمرون على شعبها وقد حز ذلك في نفسه ، وأبى أن يغض الطرف عنه ، ولم تمنعه مسؤولياته الكبيرة ووظائفه العالية التي شغلها من أن يقف الموقف الوطني المطلوب وهو موقف حال بينه وبين أن يكون شاعرة للبلاط ، وهذا ما يؤكده شعره في تلك الفترة .

و تسوء حال البلاد ، وتثور بسببها نفس الشاعر الأبية ، فيطلق على أثر ذلك صرخته المدوية ، ليفضح بها فساد الحكام، ويكشف ظلمهم ويؤلب الناس عليهم.

على الخديوي توفيق بدلا من أبيه إسماعيل ، وتسقط الى الخصوم في وتعد قصيدته اللامية هذه ، من عيون قصائده النقدية الثائرة التي تجسد مافي طبيعته من إباء وشمم ، وتصور ما كان يجري في مصر على عهد إسماعيل ، وتضطرب أمور البلاد اضطراب شديدة ينتهي بمجيئ الخديوي توفيق بدلا من أبيه إسماعيل وتسقط وزارة لتحل محلها أخرى ، وينتهي المطاف بتقلب البارودي بين وزارتي الأوقاف والحرية ثم يثور الجيش في آخر الأمر بقيادة أحمد عرابي ومشاركة البارودي ومجموعة من الضباط الوطنين .

غير إن الأمور تنتهي في آخر الأمر بفشل الثورة ويلوم الثوار بعضهم البعض الآخر وينتهي بهم المطاف إلى الاستسلام ، ونفي معظمهم بعد محاكمة صورية إلى خارج البلاد، وتكون جزيرة سرنديب النائية مقرا لنفي الشاعر ليقضي فيها سبعة عشر عاما أو إلا ما يزيد.

في نهاية ١٨٨٢، تبحر إحدى بواخر الانكليز - مقلة البارودي وبعض صحبه الى جزيرة سرنديب .

ويطل الشاعر على ساحل مصر ليلقي عليه نظرة الوداع .

وما تكاد الباخرة تغادر أرض النيل حتى ترتفع عواطف الشاعر الدافقة لتتحول إلى مشهد حزين ينتهي إلى تجربة صادقة .

ولا شك إن هذا الموقف قد حقق لشاعرنا تجربة تسمو على كل تجاربه السابقة لأن أبعادها لاتقف عند حدود نفس الشاعر فحسب ، بل تمتد إلى أطراف أخرى ، هي الأرض والوطن والأهل والأولاد ورفاق الجهاد ، فهؤلاء كلهم بشكلون حدود لتجربة الفراق والغربة ، على الرغم من أن الشاعر قد سبق له أن جربها حين فارق الوطن جنديه مقان ضد اليونانيين والروس وغيرهم. ولكن شتان ما بين الحالين.

وفي البيئة الغربية الجديدة هذه ، لا تستقر نفس البارودي على حال بل هي تضطرب اضطرابا شديدا حتى في علاقات الشاعر مع رفاق السلاح الذين دب الخلاف بينهم وبين البارودي على الخصوص .

وكان ذلك من أشد ما عاناه من عذاب نفسي أنتهي في آخر الأمر إلى إصابته بالعديد من الأمراض ، وعلى الخصوص في إحدى عينيه التي بدأت تفقد وظيفتها البصرية ، واعتل بعض أعضاء جسده .

وينتهي ذلك كله باعتزاله معظم الرفاق مكتفية بخادمه الأسود الذي اصطحبه معه ، مؤثر العزلة عن الناس .

و نفي أيام الشاعر رتيبة ، وتتبعها ستون أكثر رتابة ، ويمعن الشعور بالضياع في نفسه حتى يصير شبحة مخفية.

ويضاف إلى هذا ما كان يصله من أخبار سيئة عن أهله وأصحابه .

فقد تخطف الموت زوجته عام ١٨٨٧ بالقاهرة .

وينزل الخبر على الشاعر (نزول الصاعقة ، و تدركه ربة الشعر بقيثارتها ، تنشد له نشيد الرثاء حتى لا يبخع نفسه على أثرها.

وقد طفحت مرثيه لزوجته بعواطف اللوعة حتى قال عنها أحد النقاد (و مطولة البارودي التي يبكي فيها زوجته الحبيبة و يديها على البعد ، من نادر الشعر العربي ، فقليلا ما رثى الشعراء العرب زوجاتهم ، ذلك لأن رثاء النساء لم يكن مألوفة في البيئة العربية ، والحزن في القصيدة حزن عميق جدير بأن يعد نموذجا في الشعر العربي للعاطفة بين الزوج والزوجة) وتتوالى الأحداث الجسام على الشاعر ، فيصدمة القدر وفاة الزوجة بوفاة أحدى بناته.

وفي هذه الفترة من حياة الشاعر يتوالي نعي موت أصدقاء العسر ورفاق الجهاد .

ليحمل معه أخبار من عصف بهم الموت. وكان من بينهم الشدياقي وعبد الله فكري بكاهما بكاء حار وبكى معهما الوطن وفي سنة ١٨٩٩ بشتد بالشاعر العرض ، ويحال إلى لجنة من الأطباء التي تقرر ضرورة عودته إلى مصر، وما تكاد قدماه تحط أرض مصر حتى ينشد قصيدته المشهورة

التي شهدت له بالحب والوفاء لمصر ولأهلها ، كما شهدت قمة نضج الفني وصدقه الشعوري .

وفي السنوات الخمس التي تبنت من عمره والتي قضاها الشاعر بداره المطلة ، على النيل ، عمل على تنقيح ديواته الضخم ، فراح يقرأ شعره من جديد حتى أكتمل له في٥٢١٣ بيتا ، غير قصيدة و كشف الغمة) وعدد أبياتها٤٤٧ بيتا، وغير المقطوعات التي وردت في كتابه (قيد الأوابد) .

وتميزت داره وحياته في تلك السنوات بنشاط أدبي منقطع النظير ، حتى صارت منتدى أدبيا مشهورا ، يستقبل فيه الشعراء والأدباء ، وقلما تخلف عن زيارته شاعر مشهور أو أديب معروف .

كما تضمنت تلك الفترة عناية بمختاراته المشهورة التي جمع فيها شعرا لثلاثين شاعرة وانتخب منها ما ينسجم مع ذوقه الرفيع . وقد رتبها ترتيب زمنين بدأها ببشار وانتهى فيها بالشاعر أبن عنين.

لم يكد ينتهي من ترتيب ديوانه الضخم ومختاراته الرفيعة حتى سقط قلمه في كانون الأول عام ١٩٤٤، وكأن القدر كان ينتظر منه إكمال رسالة في فن الشعر.

الشعر والشاعرية :

يقتضينا البحث في شعر الشاعر أن تقف عند تعريفه له و مفهومه لديه ، فقد وضع البارودي في مقدمة ديوانه تعريفة للشعر ووظيفته فقال (إن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها قدماه تحط أرض مصر في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فتفيض بالأنهار نورا يتصل بأسلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ، ينبلج بها الحالك ، وهندي بدليلها السالك .

وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه واختلفت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليمة من وصمة التكلف ، بريئا من عشوة التعسف ، غنية عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد).

ويتضح من هذا التعريف أن الشعر في نظر البارودي ليس وليد التكلف والصنعة ، وإنما هو وليد الطبع .

وهذا يؤكد أن شعر البارودي (لم يعد كلفا وجيلا بديعية ولا أبياتا تقرأ طردة وعكسة ولا أرقامة حسابية تجمع تاريخا معنية، لم يعد اضطراب في التواء ، ولا تلفيق وإنما أصبح شيئا طبيعيا بندفق في التنفس).

ولا يبتعد تعريف البارودي للشعر عن مفهوم القدماء له ، إذا أكدوا على المواءمة بين ألفاظ الشعر ومعانيه وعلى استواء الفكرة وبعدها عن التقيد كما نادي كثير منهم بالبعد عن التكلف وهجر المتعة التي تسيئ اليه .

يخلطه بظروف أمته السياسية ومشاعرها القومية ، ويلاحظ البارودي ملاحظة دقيقة في الايام القمر الدي نشأ ومما يتصل بهذا مواءمته بين ألفاظ الشعر ومعانيه (إذا كان البارودي يتخيرا الألفالظ المناسبة للمعاني التي يريدها ، فيرق ويلطف حين يقضي المقام الرقة واللطف، كان يتغزل أو يعنب أو بصف منظرا جميلا أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ويشتد أسره حين ينشد في الحماسة والفخر والمديح، وحين يصف البحر الهائج والريح الزقوق والحرب الضروس.

وهذا مما نبه اليه نقادنا القدامى حين أشاروا إلى مطابقة الألفاظ للمعاني ، ولا يستبعد أن يكون شاعرنا قد أطلع عليه و تأثر به ولقي استجابة في نفسه حتى بعثه من جديد.

كما بعث الفن نفسه من جديد .

والذي يقرأ شعر البارودي يجد فيه استجابة لفهمه الخاص بعيدة عن التقليد، إيمانا منه بأن الشعر لا يجب أن يبتعد عن طبع قائله ، بل يعبر عن جوهر : نفسه وأن لا يكون وليد التكلف بقدر ما يكون وليد الطبع ، وهو في هذا يحقق بعث الشعر العربي وبعت مفهومه ووظيفته ، ويكون رائدة لهذا البعث الشعري .

أما بالنسبة لمهمة الشعر فقد تحدث شاعرنا عن (وظيفة الشعر الاجتماعية والنفسية، فمثله كمثل جميع الفنون يهذب النفوس ويصقلها كما لا ينسى ما يؤديه من دعوة إلى مكارم الأخلاق وقد تعمقه هذا الإحساس بوظيفة الشعر الاجتماعية تعمقا بعثه على أن يخلطه بظروف أمته السياسية ومشاعرها القومية ويلاحظ البارودي ملاحظة دقيقة هي تأثير الشعر تأثيرا بالغا في نفوس الناس ذلك انه ذلك أنه ترجمان الروح

يفصح عن كل ما يجري بها من أحاسيس ومشاعر وخواطر وأحلام و آلام و آمال).

ولا شك أن هذا التأثير يتصل بصدق التجربة التي لا يقف تأثيرها عند حدود الشاعر حسب بل يتعداها إلى التأثير في نفس السامع .

ذلك هو فهم البارودي للشعر .

وتلك هي وظيفة لديه ، وهي كما نرى لا تختلف عن مفهوم القدماء له ، لكن الذي يسجل له في هذا الميدان هو أنه قد طبق مفهومه هذا ، وحققه في شعره ، وهو ما حقق أيضا تجديدة ملحوظا في موضوع القصيدة العربية ، إيمانا منه بأن من حق الوطن على الشاعر أن يستجيب لندائه وقد لي البارودي داعي الاستجابة .

نظم البارودي شعره في معظم الموضوعات القديمة ، تحقيقا لبعث الشعر القديم في الفخر والمدح والهجاء والرثاء والوصف والعتب .

وقد عاش في بعض هذه الموضوعات في الأجواء العربية القديمة ، بعيدا عن حياته المعاصرة وبيئتها الجديدة ، بل إنه ليضرب في متاهات نجد ورباها ووديانها ورمالها.

ويقف - وهو شاعر مصر الذي نشأ في القاهرة وعاش لياليها وتمتع بطبيعتها وغاص * بلهوها وحقق أحلامه الجميلة بقصورها وحدائقها وجزرها - يقف هذا الشاعر على الأطلال والدمن ليقول شعرة يكاد يكون جاهلية روحا ومعنى ، ربما لأتمت إلى حياته وبنته .

وهو يفعل مثل ذلك في تبه وفي وصفه للمرأة الحبيبة فبعد كما يقول عمر الدسوقي إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهي تحكي الظبي في كتابه والبدر في سمائه، وهي مهاة والحاظها سيوف باترات.

وكما عاش أجواء القدماء في أوصافهم وأطلالهم ونسيبهم ، فقد حاكاهم في معانيهم في الغزل وفي الحكمة وهي صورة تنطبق على قول أبي فراس لفظ و معنى.

وهو ما حدا بعض الدارسين إلى اتهامه بالسرقة .

وقد دافع محمد حسين هيكل عن هذه التهمة قائلا (وهذا التطابق البين على قلته في شعر البارودي ، قد أوفد غيره من الفحول بمثله ، وإنما يفسره أن روح البارودي متصلة بالأقدمين كل الاتصال . وما قاله في الحكمة وكثير مما قاله في الفخر .

ليس إلا ترديدة لما قالوا ، لأنه لم تكن له فلسفة خاصة ، ولأنه كان يبعث معاني الأقدمين ، كما كان يبعث لغتهم ، وأنا لا أسيغ تسمية هذا البعث سرقة ، والشعراء والكتاب في كل أمة وعسر بند اولون المعاني بينهم)، والواقع أننا لا يجب أن ننسى أن البارودي قد قرأ الشعر القديم وهضمه واسنانه وأعجب به و أشريت روحه فيه ، ولا يمكن في ظل هذا ، أن ينجو شعره من النفاذ فيه .

وأغلب الظن أنه كان يعمد إلى هذا وأمثاله ليؤكد قدرته على الاحتلاء ولا يجد في نفسه من أعجاب فيه وانسياق اليه .

فقد التحمت نفس البارودي بأسلافه الأوليين التحاما جعله يتحدث عن الدمن والأطلال والرعيان .

كما يتحدث عن صاحبته بلسانهم وبنفس أو مسافهم ونسيبهم ، بالضبط كما كان يتحدث بشار وغير بشار من شعر العصر العباسي حين يخلصون حياتهم الحضرية ويغرقون في البيئة البدوية ، وكأنما يريدون لأرواحهم أن تنصهر فيها انصهارا.

على أن هذا لا يعني أن شخصيته قد فنيت في غيرها قناء تاما ، بل هي تتضح تمام الأتضاح كما سنرى ، ولابد من الإشارة إلى تأثير منتخباته التي جمع فيها وفي أربعة مجلدات العشرات من فحول الشعراء القدامى

فقد استقر في نفسه من معانيها و صورها ولغتها ما يمكن إغفاله ، وتجاوز تأثيره ، وتشكل معارضاته المشهورة لفحول الشعراء تأكيدا لما نقول.

وقد كان تأثير الشعر العباسي في البارودي شديدة واضحة .

وقد تبع شوقي عبر هذه الظاهرة في شعره ، فوجد أن هذا الشاعر قد أشرب روح تايهي الشعراء العيال أمثال أبي فراس في خمرياته والبحتري

في نسبه . وأبي تمام في تصويره وأبي العتاهية في زهدياته وأبن الرومي في هجائه والمتنبي في شكواه من الزمن وحديثه عن الأخدن والطباع و أبي العلاء في نقده للحكام وأبي فراس والشريف الرضي في فخرهما.

ويرى هذا الناقد ، إن ذلك لا يضير الشاعر ، إذ كان يقصد اليه قصدا ، حتى لا يتوا شعره عن ذوق العرب ، وحتي يصبح له نفس الوهج القديم.

و نظيف أن شخصية البارودي ألتي تتشكل من أجناس شتى وطبيعته الطموحة، ضربه وثقافته الواسعة كل ذلك قد قربه من هؤلاء الشعراء ، وحفزه على أن تتابع طوابعهم القبية وينحى مناحيهم الأسلوية .

ولعله قصد أن يكون شاعر زمانه كما كان كل منهم شاعر زمانه ، وأن يكون فارس أحلامه كما كان بعضهم فارس أحلامه ، وأن يكون له من فرات اسم ساوج الفني ومجده الشعري ما كان لكثير منهم . ولقد تحقق له شيء من هذا المجد ، يذكر شعرنا الحديث حتى يكون البارودي في أول صفوفه و مقدمة ريادته .

من أشد الموضوعات التقليدية تأثيرا في شعر البارودي ، الرثاء ، فقد تابع شاعرنا القدماء في معانيهم التي لم تخرج عن التفجع على الميت والشكوى من الحياة وذم الزمان بيان مناقب المرئي ، ويلحق بهذا شيء من الحكمة .

وقد رثى الشاعر العديد من أصدقاء السلاح والأدب كالشيخ حسين المرصفي وعبد الله فكري فكري وأحمد فارس الشدياق وغيرهم.

نفسه من معانيها وصور وعبد الله ورثى أولاده وزوجته التي بكاها بكاءا حارا وهو في المنفى فزاد ذلك من عمق إحساسه بالفجيعة ومن عمق أساه وضاعف من شعوره بالم الوحدة .

دفعه إلى العتب على الزمان وعلى القدر وتتسع حدود تجربته لتمثل مصير الأولاد الذين تكسرت أجنحتهم بوفاة أمهم ويرسم في مرثيته لزوجته صورة لمأساة بناته اللاتي تيتمن بموت الأم وبعد الأب وصرن يعشن في ظل الوحدة .

لا تغمض لهن جفون من كثرة البكاء ويصوغ من تصويره ذلك صورة تنبض يحيوية الفن الكلاسيكي ، فقد ألقت بناته دور عقودهن وضعن من

دموعهن عقودة وراح الشاعر يتحدث عن جزعهن . وقد بعث تلك المعاني مع ريح الصبا حتى لا يبنوا شعره عن ونسيمه انسجاما مع احتدائه لمراثي القدماء.

وعلى الرغم من أن أغلب مراثي البارودي لم تكن عميقة الأفكار ، لأنه لم يقف فيها على أسرار الحياة والموت ، كما فعل شعر اؤنا القدامى ، و كما فعل شوقي من بعدها إلا أنها قد أتمت يصدق التجربة الشعورية ، إذ كانت تنبع من قلب مكلوم وننس مع أضنتها الوحدة .

وقوام هذا الصدق علاقة حميعة كانت تصله يمن و شاه و النزوح والأولاد ورفاق السلاح والقلم ، ومن هنا خلت مراثيه من الزيف والنفاق .

يضاف إلى هذا آمرانه قد نظمت في المنفى مما زادها صدق وحقق لها واقعي التجربة .

إذ امتزجت أحزانه بنفسه المعدية القلقة التي كانت تعاني آلام العرية .

قد كتب عمر الدسوقي هذه القصيدة بالذات من عيون قصائد الرثاء ، وهي تدل على البرم والمحية وعلى فرط حساسية). وقد سبق أن أشرنا إلى رأي علي الحديدي فيها .

أما فخره، فإنه لم يعالجه لداعي التقليد فحسب، بل لدواع تتعلق بشخصيته الطموحة، وطبيعته القوية ، إضافة إلى قراءاته للشعر الحماسة وتأثره بها مما يجعل هذه المعالجة نابعة من المعاناة الصعية .

وهذا ما حدا محمد حسين هيكل إلى أن يحكم على شعر الفخر والحماسة ورصف المعارك عند البارودي بالأصالة ، فهو في نظره (يسمو إلى حيث لا يلحقه إلا الأقلون من اكبر الشعراء فحولة واكثرهم وأكثرهم تبرزة ، ويرجع تبريزه في هذه الأغراض إلى أنه كان يعبر بها تعير صادق عما تنطوي عليه جوانحه ويتردد في أعماق قلبه أو عما شارك بنفسه فيه وهذا سر قوته في وصف الحرب ووقائعها).

ولو عدنا إلى أية قصيدة من قصائده في الفخر، لوجدنا فيها معاني الإباء والشمم والاعتزاز بالنسب. والفخر بالقوة - والتغني بالشجاعة والإشادة بالمواقف الصعبة لوجدناها تجد ما في نفسه من آمال عريضة وطموحات

بعيدة . وأنها أيضا تجسد تجارية الواقعية كما حدثت فعلا وكما خاضها بنفسه ، وأنها لا تخرج عن طبيعة ، ولا تناقض مع صدق تجاربه.

وقصيدته التي يفخر فيها بنفسه ويحرض بها بني وطنه على الرد على الظلم ، تستطيع أن تحقق هذه المعاني التي أشرنا اليها.

والقصيدة طويلة ، وكلها تجري في هذا النمط الذي تشابك فيه ضروب من المعاني التي تجتمع عند خيط فكري لا يخرج عن طبيعته الأبية التي تأبى الذل والاستسلام ، وهي معان تنبض بالقوة والحيوية ، وتحقق الكثير من المبادئ التي يؤثرها الشجعان الصناديد.

وقد أكد الشاعر فيها على مطالب الحرية . واستهجن الذل والظلم ، وتمسك بمبادئ ولا يفوتنا أن تذكر ما تخلل الزهد من حكم ومواعظ ، كان كثير منها خلاص الحق.

وخلص إلى الفخر يا باشه و الاعتداد يشبه العريق والاعتزاز بامجاد أجداده ، كما يؤكد على طموحاته العالية و آماله العريقة . ولا شك أنها ليست مما يبالغ الشاعر فيها.

وعرفنا أن الشاعر قد نظم هذه القصيدة في منفاه .

أتضح لنا ما كانت تحمله نفسه من إباء وشمم، فعلى الرغم من الأحداث الجسام التي ألمت به أنها على قسوتها ، لم تفت من عضده ولم تضع معنوياته.

وصحيح أننا تعثر له على قصائد قليلة تشير إلى يأسه من الحياة والناس و تلمح شيئا من ذلك في زهدياته ، ولكن هذا قليل إذا ما قيس بحماسه وفخره . ولعل دين عنده (يرجع إلى تلك الحالات النفسية التي غليه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شير يعاني غصص الفراق والنفي ، وإلا فهذه النفس الطموح التي خاصرت وغامرات وتطلعت إلى الملك ، وتلذذت و نعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة ولعلها لم تره مرغمة). كما يرجع أيضا إلى (عاطفته الدينية التي أخذت تقوى وتنمو ولعب استوت في نفسه بفعل الخطوب و الأحداث التي عمقتت فيه عنصر التجربة ، واذا هو يتحدث عن الحياة والموت والبعث والخير والشر، ولاشك أن استواء العناصر الثقافية وكثرة التجارب قد عمقت موقفه تجاه هذه المسائل

وانتهت به إلى تيار زهدي ملحوظ من ذلك قوله يتحدث عن الإنسان وفنائه.

ولا يفوتنا ان نذكر تخلل الزهد من حكم و مواعظ كان كثير منها خلاصة تجاربه في الحياة وتعامله مع الناس وتتويجا لقراءاته المكثفة لشعرنا القديم.

وتأتي الآن إلى غزل البارودي وإلى خمرياته اللذين آثارا بين الدارسين خلافا عن حقيقته موقفه منها وصدقه فيها .

و كان مسيكل قد أستبعد وقوع الحب للبارودي واستنكر صراحته فيه ، وربما أراد بذلك أن ينزه الوزير القائد من عبث الفتيان .

وقد نسي هيكل ما قاله البارودي في مقدمة ديوانه ـ عن دوافع قول الشعر عنده إنما هي أعراض حركتي وإياء جمح بي وغرام سال على قلبي » وهذا ما دفع شوقي ضيف إلى أن يحكم على حب البارودي بأنه (غرام حقيقى كتابده مع بعض الفاتنات في روضة المقياس وفي حلوان ، وكاد ينفطر له قلبه أمي وحزنا وسالت دموعه فيه مدرارة ، لما كان يتخلله من اليأس اللاذع والقنوط الممض).

والحق أننا لا يمكن أن نشك في صدق حب البارودي بوصفه لا يتناسب مع موقعه الاجتماعي بل العكس هو الصحيح ، إذ أن السنوات التي قضاها الشاعر في بلاط إسماعيل هي التي هيأت له ظروف ذلكم الحب. ولقد جهر الشاعر يوقوعه له (دون تحفظ أو خشية من لوم فهو يؤمن بأن الحب ضرورة لازمته لأنه فطري في المرأة والرجل . وألم الصبابة هو الألم العبقري الذي تحيا به نفسه وإن الفتى الكريم لا يعيبه اللهو والتصابي فكل مسوق لا أريد له).

وهو اعتراف من الشاعر بأنه كان يكابد الحب ، على أن هذا الحب هو حب كما صرح به.

ومن هنا كان دفاع علي الحد يادي عن حب البارودي ، وقد سبق أن أوردناه في الكلام على حياته.

غير إنعفافه في حبه لم يمنعه في لحظة ضعف أن ينزلق في طريق الغواية فيخرج كما سبقه أن رسمه لنفسه في دروب العفة (وصراحة البارودي

في الاعتراف تدل على الصدق الفني في شعره ، فقد كان أمينة مع عواطفه و صادقا في التعبير عنها .

وأظن بعد ذلك لسنا بحاجة للتأكيد على صدقه الشعوري والفني في موضوع الحب الذي نظم فيه روائع تفيض بالوجد.

وكما كان البارودي صريحا في حبه فقد كان صريحة في وصفه الخمر ونحن لا يحاضرنا شك في أن الشاعر قد اقترف أثم الخمرة كما اقترف آثام الحب والذي يستهويه طريق الغواية في عشق الجمال ويمارسه ، يمكن أن يستهويه شرب الخمرة فيمارسه ، وهكذا راح شاعرنا لاعتراف تدل على بصراحته المعروفة بنعتى (بالخمرة وآثارها في العقول والأحاسيس وأوصافها في ألوانها وجدتها وعتقها ، غناء خبير مارس الشراب حتى عرف أسرار التجربة ، كل ذلك في الفة تفيض قوة وحيوية ، بل تفيض فرحا وبهجة ولذة و كأنما يريد أن يمنحنا محبة حت ظني الحياة ، وديوانه عليء بمجالس الشراب في ليالي الانس يصف دنائها وندمانها و كؤوسها وسقاتها وصفة رائعة في أكثره) .

و تحتشد قصائد الخمرة في ديوان البارودي مقطوعات قصيرة أو قصائد (لا تقل في روعتها عما نظمه شاعر الخمر القديم أبو نواس.

وقد ارتبط غزله وخمريته بوصف الطبيعة ، وعلى الرغم من كثرة قصائده في الوصف إلا أن الطبيعة التي تقلب في ظلها البارودي ، سواء في مصر أو في جزير سرنديب حيث منفاه ، قد سيطرت على ريشته الفنية ، وكانت واحدة من العناصر أثارت شاعريته . وربما كانت طبيعة مصر قد أثارت في نفس الشاعر من المشاعر و عكست تجاربه الصادقة.

وإذا كانت بعض قصائده في وصف الطبيعة قد استمدت صورها من الشعر القدير وغدت بيب ذلك تقليدية ، ألا أن (الجديد في وصف البارودي أنه أفرد له قصائد بعينها لأن شاعريته وحواسه المرهفة و تذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، والى وصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعره وأفكاره)

والقصيدة طويلة و كلها على هذا النمط من الوصف المادي الحسي.

إن الذين تحدثوا عن وصف البارودي قد اتفقوا على ملكته الخيالية ، خصوصا في وصف الطبيعة التي أثرت في مشاعره واحاسيسه ، كما تحدثوا عن صدقه فيها يقول هيكل هذا الوصف (وكما اختزنت ذاكرته للشعر صدر شبابه فقد اختزنت في هذه السنوات المتعاقبة من صور مصر ، ما زاده حبأ لها و تعلق بها وما جعله يتحدث في شعره عنها ، ويصف بديع مناظرها وصفا لم يسبقه إليه أحد).

لقد حقق شاعرنا في قصائده السياسية والوطنية تطورة واضحة، حين انتقل بها من مصر أو في جزيرز (عالم الفردية الذاتية التي يعيش فيها ، إلى محيط العمل من أجل الجميع ، ومن محور حدة من العناصر التي الحياة الخاصة الذي يدور فيه إلى مجال النضال الوطني الكبير ، ثورة يريدها أن تمتد من شاعر من المشاعر ما نفسه إلى مواطنيه ، فتوقفهم ليستأصلوا أسباب ذلهم وعلة ظلمهم).

وفي شعره السياسي كان البارودي ناقدة اجتماعية وثائرة وطنية ومصلحا صريحا حاد المشاعر شديد الإحساس على حرية أبناء بلده ناقدة هوائهم وذلهم وتهاونهم في ردع الظلم والسكوت عليه.

والحق أن البارودي في ريادته للشعر السياسي والوطني قد فتح بابا جديدة لموضوع " القصيدة العربية الحديثة ، قبل أن تتأثر بالدعوات الأوربية و مذاهبها الأدبية .

ومن هنا كان حقيقة (بالبارودي أن يجد الأنصاف من وطنه فيعترف له بأن صوته كان أسيق الأصوات في الدعوة إلى الثورة المسلحة على الفساد والظلم في مصر الحدين وجدير بالتاريخ أن يسجل له هذا السيق ، ويذكر له بالتقدير شجاعته لوطنه) والحق أن اقتحام البارودي لميدان الشعر السياسي لم يكن تجسيد لأفكاره الحرة وتطلعاته الثورية وإنما كان تأكيدا لحبه للوطن وولائه للأرض ، فكثيرا ما تغنى بمصر وجمالها وسحرها خصوصا في مرحلة المنفى، إذ ظلت تلك القصائد تؤكد مشاعره الدافقة تجاه وطن وأحبابه.

وهذه المشاعر التي تعبق بالحب والوفاء لمصر هي واحدة من الأسباب التي دفعت البارودي إلى الدفاع عن بلده ورد الحيف عنه وتحمل الأموال في سبيله .

ولهذا الشعر السياسي والوطني وجه آخر يلتقي معه في الأسباب ، ويتصل به في الجذور ، فقد كانت مصر وقتئذ تكن من التخلف بأشكاله المختلفة ، وقد ذكرنا في غير موضع ، إن الشاعر كان في دعوته هذه شديد الغيرة على أبناء بلده يؤلمه ما يراه منهم من تقاعس وقعود عن الثورة واستسلام لظلم الغزاة والحكام ، لذلك كان يصرخ بالأمة إذ يراها تقنع بالذل.

وحين لا يجد استجابة لدعوته ، يتألم ويأسي على ما يراه من خضوع الناس تطلعاته الثورية وجبنهم ويتأسف أن يجد مصر يحكمها الأعراب ، ويذكر أهلها بأمجادهم وحضارتهم ، ويروق ذلك كله بمشاعر نبيلة و عواطف حارة مخلصة لا يرقى إليها شك.

وتمتلئ القصيدة بالصور النقدية الواقعة الصريحة وتنم عن حرص الشاعر وصدقه في مشاعره الوطنية ، كما تفصح عن دقته في رصد الأحداث وقدرته على تصوير الواقع .

بقي أن نقف عند غربته التي أوحت إليه بأعذب ألحان الحنين ، وقدمت غزرة من القصائد العاطفية الصادقة.

وصحيح أن شعر الحنين قديم في تراثنا الأدبي ، كما شاع لدى شعرائنا المحدثين امثال شوقي والكاظمي وغيرهما. غير أنهم لم يبلغوا منه ما بلغه البارودي من دقة في الوصف وصدق في الإحساس وحرارة في العواطف.

فقد كان هذا الشاعر يعاني غصص القرية أكثر من سبعة عشر عاما ، يبكي حاله و يرثي زوجته وأولاده وأصدقاءه ، ويستجيب لدواعي حبه لمصر ، فيخشع لطبيعتها ، ويصف وحشة الغربة وعذابها ، و يكشف عما آلت إليه نفسه من شوق لمصر ولمن فيها ، كل ذلك والشاعر يعتلك قياد فنه ، حتى لكأن شعر الخفين كان ينتظر من يكشف على أصالة بعد طول غياب ويحيي معانيه بعد أن غابت عن الشعر مئات من الستين .

والذين درسوا شعر البارودي يتفقون على أن موضوع الحين يمثل لديه أروع ما تناولته ريشة هذا الشاعر.

العربي وعمته ونقاءه ، لم تتحقق إلا بمجموعة عوامل ، بعضها يتعلق بملكته صدق أحاس وحرارة عواطف لأنه قد أستمد مبادرة تجاريه به مما كان يعانيه و يكابده وهو كثير.

والقصيدة طويلة ، تحتفل بالوصف الدقيق والمشاعر الرقيقة والعواطف الدافقة وتختلط فيها المشاعر الفردية بالمشاعر العامة الإنسانية ، كما أنها تنبئ عن الموقف الصادق للتجربة الذاتية التي تختلط بالتجربة الإنسانية العامة .

بقي أن تعرف شيئا عن مفهوم الريادة الشعرية للبارودي ، هذه الريادة التي حققت له مجده الأدبي وأتاحت له مالم تتح لغيره من شعراء جيله ، ذلك أن ما استعرضناه من شعر الشاعر وشاعريته ، وملكاته الأدبية ، وإمكاناته الفنية التي استطاع أن يعيد بها للشعر أصالته وعمقه ونقاءه لم تتحقق إلا بمجموعة عوامل بعضها يتعلق بملكات لشخصية وبعضها الآخر يتصل بظروف استنزفت قدراته الخاصة و حركت في نفسه عوامل الطموح والريادة التي تتحقق اللى غيره من شعراء جيله .

إن مفهوم الريادة لا يعني ، تحقيق التجديد و الخلق والابتكار في المعاني والأساليب واللغة و الموضوعات وغيرها ، وإنما يعني بعت الشعر العربي إلى ما يصله بشعرنا القديم روعة أسلوب ورصانة لغة وجزالة لفظ ـ وصحة تركيب و متانة عبارة .

وما ينتج عن هذا كله من بعد عن الابتذال في الموضوعات و الاسفاف في الأفكار والضعف في المعاني ،وكلف بالبديع و أثقاله.

والواقع أن الشاعر العربي على عهد البارودي لم يستطيع أن يحقق شيئا من هذا ، وإنما هبط بالشعر إلى ما يحيله الفاظ مرصوفة وعبارات ركيكة ، وراح يحشده بألوان البديع ويثقله بما يتهيأ له من جناس وطباق ومقابلة وحطو حتى إذا جاء البارودي سعا بالشعر وبعث القصيدة بعثا جديدا يصلها بماضيها الزاهر ويحقق لها نوعا من الواقعية التي المحت إلى بعض صورها ، كما حقق لها من الصدق الفني والشعوري ما أرتفع بها إلى مستوى الشعر الجديد.

وأكبر الظن أن الذي هيأ للبارودي كل هذا هو أنه (أكد على النماذج القديمة الرائعة يحفظ ويستظهر ويزاول صنع الشعر ، وبذلك أعاد للشعر

العربي سيرته الأولى عند شعراء الجاهلية والإسلام من الرواية والاستظهار ثم المزاولة وأيضا من التعبير الواضح المستقيم عن مشاعر صاحبه)

ولكن ما الذي حقق للبارودي هذه الريادة ؟

هناك مجموعة من العناصر التي هيأت له هذا المجد الريادي وفي مقدمتها عنصر الثقافة وهي تتوزع بين العربية التي شغف بها واستظهر الكثير من شعرها ، وهي التي حققت له القدرة على الاحتذاء.

وربما أفاد شيئا من الثقافة التركية والفارسية التي نظم فيها شعرا و كتب نشرة .

وأما العنصر الثاني فهو جنسه الشركي الذي ظهر طابعه في شعره، وأظهر اعداد به ومما يتصل بها من الجادة التي أسلمته إلى ارتياد سبيل الفروسية و طموحاته الشخصية وعبد بوساطتها أمجاد آبائه وأجداده.

وغيرها من العناصر هي التي دفعت بالشاعر وشعره لأن بعبد المجد الأديي وإعجابا و فخر بنيه وهو الذي دفعه لأن يسمو إلى الطموح ، ومنه الطموح الأدبي قصائده في الفخر والحماسة.

ومما يتصل بعنصر الطبيعة الشخصية ، مواهبه الخاصة من ذكاء وقدرات و امكانات فلما توفرت لدى غيره ، وهي التي هيأت له استيعاب ما يقرأ ويحفظ.

وربما يكون للبيئة المصرية أثر واضح في هذه الريادة ، وهي العنصر الذي أمده بمادة تجاريه و صورة الواقعية الناضجة ، فقد مضى يصب بما تهيأ له في سني حياته الأولى من حب وخمر وغلافات بصفها وصفة رائعة بعيدا عن الافتعال كما راح يصف مشاهدانه في قصور الخديوي إسماعيل وعباس ويصور ما فيها من بذخ ولهو ومن بديع ما تحتويه القصور ، و تهيأ لقلبه في هذه الأجواء أن يحب ويكشف في صراحة عن حبه ، كما تهيأ له أن يصف الخمرة التي كانت تعج بها نصور الخديويين . وقد أمدت مصر بما فيها من أحداث سياسية وصور اجتماعية قصيدة البارودي بالموضوعات الجديدة والمعاني المختلفة حقق له مكان الصدارة والريادة الأدبية ، فكان دون منازع رائدة للشعر العربي الحديث